



سلطان بن زايد يرعى مهرجان الإبل التراثي

تراث الإمارات

تراثية ثقافية متنوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 138 مارس 2011

أبو ظبي قبل 8 ملايين سنة





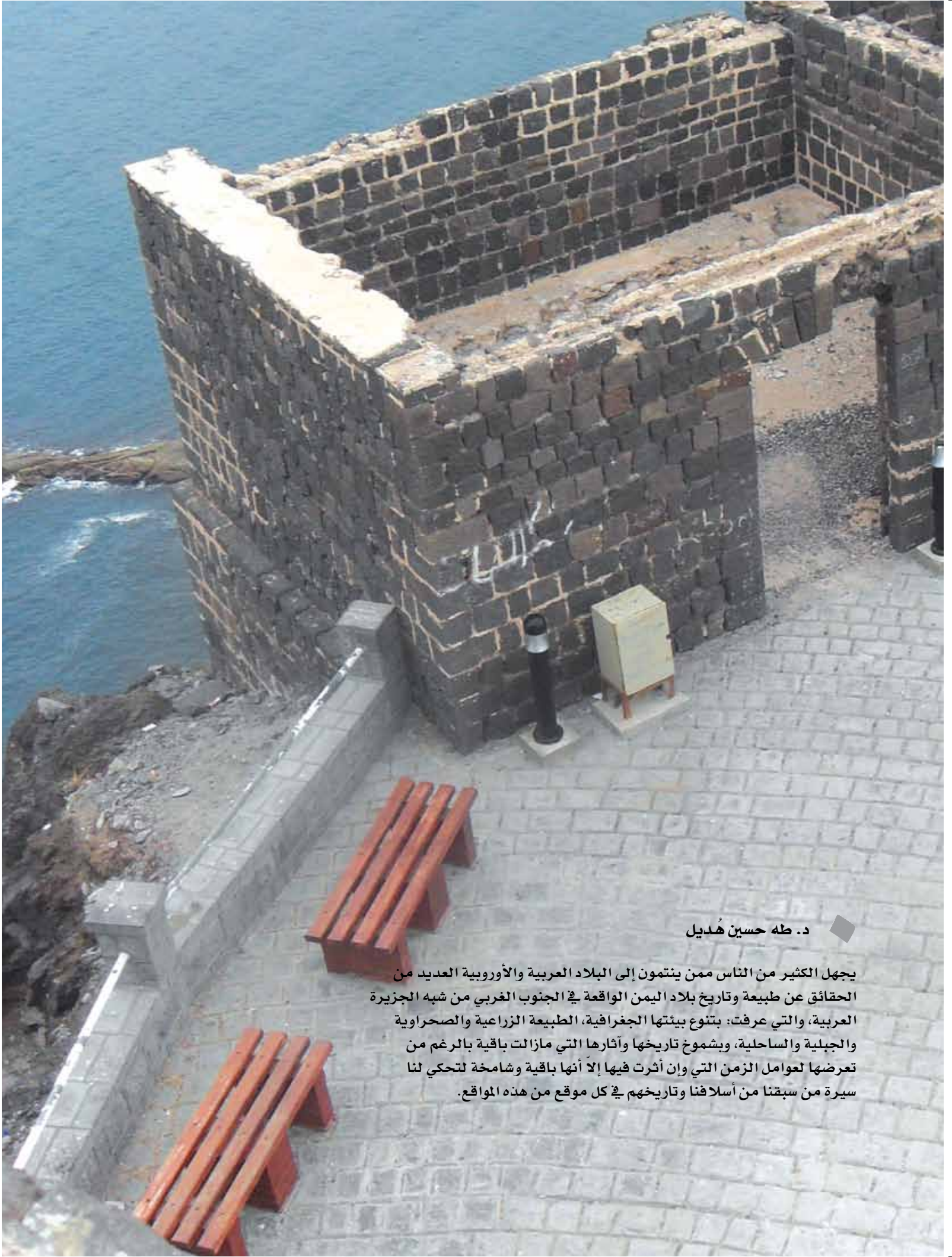
تراث مدن

صيرة التاريخ والشموخ بين الحقيقة والأسطورة

العدد 138 مارس 2011

62





د. طه حسين هُدَيْل

يجهل الكثير من الناس ممن ينتمون إلى البلاد العربية والأوروبية العديد من الحقائق عن طبيعة وتاريخ بلاد اليمن الواقعة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، والتي عرفت: بتنوع بيئتها الجغرافية، الطبيعة الزراعية والصحراوية والجبلية والساحلية، وبشموخ تاريخها وأثارها التي مازالت باقية بالرغم من تعرضها لعوامل الزمن التي وإن أثرت فيها إلا أنها باقية وشامخة لتحكي لنا سيرة من سبقنا من أسلافنا وتاريخهم في كل موقع من هذه المواقع.



المؤرخ ابن المجاور أول من ذكر صيرة في كتابه المسمى «المستبصر»

سكناً لأحد الجن ويسمى (راون)، وكان لهذا الجني عشرة رؤوس ويسمونه (دي سير)، والكلمة (سير) هندية معناها (رأس)، وربما الهنود كانوا يسمون عدن (سيرايسيت) إشارة إلى رأس الجني راون. وفي الوقت نفسه، يُعتقد أن البرتغاليين هم من أطلق هذا الاسم على صيرة، عندما غزوا عدن سنة 1513م، لهذا يقول لقمان أن الكلمة (سيرا) بالبرتغالية معناها (جبل)، وربما يكونوا أطلقوا عليها كلمة سيرا نسبة إلى أحد قوادهم الكبار، لاسيما وأنه قد جرت العادة أن يطلق البرتغاليون أسماء قوادهم على المدن التي يستعمرونها وتطل عليها الجبال، مثل: (سيراليون) و (سيرانيفادا)، ويذكر لقمان أنه ربما أطلق اسم (سيرا ألفونسو) على عدن لولا هزيمة هذا القائد (ألفونسو ديليو كيرك) من قبل أهالي عدن، وعودته خائباً منها.

موقع جزيرة صيرة وتاريخها

تقع جزيرة صيرة شمالي عدن، وتبلغ مساحتها مثلما يشير الدكتور الشيخ سلطان بن محمد القاسمي في كتابه الاحتلال البريطاني لعدن، حوالي 700 ياردة عرضاً، و1200 ياردة طولاً، بينما ترتفع 430 قدماً فوق مستوى سطح البحر، وهو ما أعطى لهذه الجزيرة أهمية خاصة بالنسبة

أيضاً اليوم جزءاً لا يتجزأ من مدينة عدن بعد التوسع العمراني الكبير الذي ربط بينهما. ويذكر حمزة علي لقمان أن كلمة (صير) في اللغة العربية معناها (السّمك الصغير) أو السردين، كما أن (صير) أيضاً معناها (الشق) أو (الكهف) وهو ما تميز به جبل صيرة، كثرة الشقوق والكهوف، فضلاً عن انتشار سمك العيدة الصغير في البحر المحيط بجبل صيرة، ما جعل أهالي المنطقة يطلقون على صيرة هذا الاسم.

ويضيف لقمان حول تسمية صيرة أن هناك أسطورة ذكرها مؤرخو العرب تقول: إن الهنود كانوا يسمون عدن (سيرايسيت)، وإن هذه البقعة الممتدة من جبل الخضراء (جبل البندر) حتى جبل المنظر، ومن هناك على طول ساحل صيرة إلى جبل التعكر (جبل حديد) (جميعها من الجبال المحيطة بـعدن) كانت

وتعد مدينة عدن التاريخية (كريتر مثلما أطلق عليها الإنجليز في مدة الاحتلال) الواقعة على خليج عدن في الجنوب الشرقي من مضيق باب المندب، من أكثر مدن اليمن عراقة وتاريخ، حتى أن الداخل إليها والسائح بين أزقتها الضيقة وشوارعها قد يستشوق فيها عبق التاريخ وأصالته، إلا أن أكثر ما يلفت نظر المقيم فيها قلعتها الشهيرة التي ما زالت تربيض على سفح جبل جزيرة صيرة التاريخية التي أصبحت اليوم من أحياء هذه المدينة بعد الامتداد العمراني الذي شهدته عدن أخيراً وأصبح يربط الجزيرة بالمدينة.

تسمية صيرة

اختلفت جهات نظر اللغويين والكتاب الذين أروا لصيرة حول أصل تسميتها ومعناها، إذ يذكر ابن منظور في لسان العرب أن (صير) اسم لجبل، وأنه يروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: لو كان عليك دين مثل (صير) لأداه الله عنك. وفسر ابن الأثير ذلك: أن (صير) اسم لجبل، من دون أن يحدد موقعه؛ وقد يكون ذلك الجبل هو جبل صيرة الشامخ في البحر والمقابل لمدينة عدن الذي يقع في ثاني أكبر الجزر المحيطة بشبة جزيرة عدن من الجهة الشمالية، بعد جزيرة العمال التي أصبحت



من ميناء عدن إلى ميناء جزيرة قيس، وعلى الرغم من هذه الإشارة التي أوردها ابن الجاور وذكر فيها صيرة، إلا أننا لم نجد إي ذكر أو حتى تلميح إلى وجود قلعة على جبل صيرة، ولكن ما دفعنا إلى الاستنتاج بوجود هذه القلعة على جبل صيرة ومنذ زمن ابن الجاور، هو نزول هذه القوات وبقاؤها مدة طويلة فيها ما يجعلنا نعتقد أن هناك مبانى وخنادق وتحصينات كان يتمركز فيها عسكر ملك قيس حتى يحققوا مرادهم الذي جاءوا لأجله. ويرد ذكر القلعة واضحاً لأول مرة في كتاب: «تاريخ ثغر عدن» للمؤرخ أبي محمد الطيب بن عبدالله بامخرمة المتوفى سنة 947هـ / 1540م، الذي ذكرها عند وصفه لرأس جبل صيرة، فقال: «وفي رأس جبل صيرة حصن قديم به رُتبة (عسكر)، وفيه بئر»، ثم يتكرر ذكر الجزيرة وقلعتها في كتابات (جون جوردين) الذي كان قد زار عدن سنة 1609م، وقال عنها: «وتوجد للدفاع عن المدينة جزيرة عالية على بعد طلقة بندقية من المدينة، وعليها قلعة تبدو منبعا لا تقهر حتى من دون رجال وعتاد، فهي قوية بطبيعتها ومن دون دروب تحميها، فالجبل قلعة بذاته»، كما قال (جوردين) إن: «جبل صيرة محاط بدروب، وجدران وإن فيه كافة الاستعدادات». لهذا ومن خلال ما ورد في المصادر التاريخية يتبين لنا

المعروف بابن الجاور المتوفى سنة 690هـ / 1291م أول من ذكر صيرة في كتابه: «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر»، وذلك عند حديثه عن الغزو الذي تعرضت له عدن في عصر بني زريع - ملوك عدن - (470 - 569هـ / 1077 - 1172م) من قبل ملك جزيرة قيس الواقعة في بحر عُمان في الخليج العربي بالقرب من حدود بلاد فارس، إذ أرسلت سفن ذلك الملك عند جزيرة صيرة، ونزلت قواته فيها، وبقيت مدة من الزمن، وخلال ذلك حاولت هذه القوات القضاء على تجارة عدن برد السفن القادمة إليها، وإجبارها على الرسو في قيس في محاولة لتحويل اتجاه سير السفن

ابن منظور

هو أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الإفريقي، كان عالماً في الفقه واللغة، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة ثم ولي القضاء في طرابلس أشهر أعماله وأكبرها هو لسان العرب، عمل على اختصار وتلخيص عدد هائل من كتب الأدب المطولة، وتوفي في مصر عام 711هـ / 1311م

لعدن جعلها تتحكم في مدخل المدينة، وفي الخليج الشرقي فيها على السواء، وقد ترتب على ذلك أن أصبحت هذه الجزيرة هدفاً استراتيجياً حتم على القوى الطامعة التي أرادت غزو عدن عن طريق البحر أن تسيطر عليها أولاً. لم تعد صيرة اليوم جزيرة كما كانت قبل عدة قرون يحيط بها البحر من أربع جهات، بل شبه جزيرة لاتصالها بعدن بواسطة ممر طويل في وسطه جسر ضيق يمر منه مياء البحر، وتصف لنا بعض كتب التاريخ التي ألفت في العقود السابقة من القرن الماضي أن هذا الممر أو الطريق كان يتسع لمرور عربة واحدة، وكان في وسطه جسر تمر من تحته قوارب الصيادين، والجزيرة عبارة عن بركان جانبي للبركان الرئيس الذي تقف على فوهته مدينة عدن، بينما تقف قلعة صيرة الشهيرة على فوهة البركان الجانبي الذي يعود تكوينه الجيولوجي إلى 35 مليون سنة، وهي المدة التي تعرضت فيها السواحل العربية الجنوبية والشرقية لهزات عديدة، نتج عنها خسف مواضع عديدة مثل عدن حيث تكون خليج عدن. وبالرغم من أهمية هذه الجزيرة بالنسبة لمدينة عدن إلا أننا لم نجد لها ذكراً في المصادر التاريخية المتقدمة التي أرخت لليمن عامة ولعدن خاصة، ويعد المؤرخ جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد

ارتباط سكان عدن بالبحر ومغامراته لعب دوراً في انتشار الخرافات بين أهاليها

طول الدهر دخان، وتسمى البئر الآن (الهرامسة). ولا يمكن لأحد النظر فيها من وهجا، وتوجد حول البئر حجارة مكسرة وأفاع نائمات وحيات قائمات. وفي القصص الإسلامية: إن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) قال عندما ذكر أشرار الساعة: «نار تخرج من قعر عدن تطرد الناس إلى المحشر»، وقد روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه، وورد أيضاً من بين هذه القصص: «أنه يخرج يوم القيامة من صيرة عدن نار تسوق الخلق إلى المحشر». ويضيف المؤرخ بامخرمة: «إن هذه النار تخرج من البئر التي في جبل صيرة، وإنها موجودة الآن». وروى بامخرمة أنه: «في رأس حبل صيرة حصن قديم وفيه رتبة، وأنه سمع أن القاضي جمال الدين بن كين العدني طلع إلى رأس هذا الجبل ومعه جمع من أعيان البلد فأدلوا في البئر المذكورة حبلًا ثم رفعوه وقد احترق طرفه، قال ابن كين: «فلما حكيت هذه القصة للشيخ المجاهد علي بن طاهر - سلطان الدولة الطاهرية - قرر أن يصعد إلى جبل صيرة ليشاهد ذلك بنفسه، إلا أن خبر مقتل أخاه الملك الظاهر عامر بن طاهر عند أبواب صنعاء أضطره إلى إلغاء رحلته إلى الجبل وغادر إلى صنعاء». وكان لارتباط سكان عدن بالبحر ومغامراته وقدم السفن وتأخر بعضها عن الوصول إلى ميناء صيرة دور في انتشار الخرافات بين الأهالي، لدرجة أنهم كانوا يعتقدون بأن الجن والغفاريت هي السبب، مع جهلهم بأن السبب الرئيس هو الرياح الموسمية، لهذا راحوا يتقربون إلى الجن والغفاريت بتقديم القرابين لها، فيأخذون سبعة ثيران إلى جبل صيرة وقت غروب الشمس، وبعد منتصف الليل يذهبون ويختارون واحداً، ويربطونه هناك ويعودون بستة، وقبيل انبثاق الفجر يدبحون الثور المربوط ويقذفون بلحمه في البحر، وهم يعتقدون بأن المشكلة قد حلت، وبإمكان السفن أن تصل إلى الميناء بسلام، واستمرت هذه العادة حتى أبطها بنو زريع - ملوك عدن -، الذين اعتبروها من أفعال الوثنيين التي يحاربها الإسلام الذي يدعو إلى التقرب إلى الله لا إلى الشيطان.

وصف جزيرة صيرة

من الممكن الدخول إلى صيرة اليوم عن طريق البر، لاسيما وأنها أصبحت ترتبط بعدن عن طريق ممر تحدثنا عنه سابقاً، أما القلعة فيتم الصعود إليها من الأسفل من الجهة الشرقية بواسطة طريق متعرجة مرصوفة بالحجارة شقت في الجبل، ويمر الطريق الصاعد إلى قلعة صيرة فوق قطرة صغيرة محمولة على عقد نصف دائري تمر من تحتها مياه الأمطار النازلة من أعلى الجزيرة، ومنها إلى الجانب الشرقي نحو المنخفض الوحيد الموجود في الجزيرة، ويستمر الطريق باتجاه الجنوب ليتفرع إلى طريقين: الأول يتجه نحو التكنة في شرق الجزيرة، وتتكون من غرف وممرات

أن جزيرة صيرة كانت جزءاً لا يتجزأ من مدينة عدن، بل كانت بمثابة الحارس الأمين الذين سخر حياته لحماية هذه المدينة من الغزاة، لما تميزت به من حصانة، لاسيما وأنها كانت الخط الأمامي في الدفاع عن ميناء صيرة الذي ترسو عنده السفن المتوجهة إلى ميناء عدن.

بين الحقيقة والأسطورة

عرفت عدن منذ القدم بأنها كانت عبارة عن بركان ثائر يقذف بحممه إلى مسافات قريبة وبعيدة، وقد تشكلت بسبب هذا البركان معالم عدن الطبيعية المعروفة لنا اليوم، بما فيها الجزر المحيطة بها وعلى رأسها جزيرة صيرة، ونتيجة لما ارتبط بهذا البركان من نيران وحمم أنفت حول ذلك العديد من الحكايات والأساطير التي تدور أحداثها بين جبال عدن أو في جزيرة صيرة وعلى قلعها، ويبدو أن تلك الحكايات والأساطير كانت جزءاً من التراث الشعبي العدني الذي توارثه أبناء هذه المدينة فيما بينهم، علماً بأن سكان عدن تاريخياً شكلوا خليطاً من الأجناس القادمة من خارج اليمن إما للتجارة أو لتلقي العلوم المختلفة في مدارسها ومساجدها العتيقة، فمنهم من قدم من الهند، والصومال (المقادشة)، ومصر، والإسكندرية، والعراق، والشام، والمغرب العربي، والسودان، والحيشة وغيرها، فضلاً عن القادمين من مناطق اليمن الداخلية المختلفة، وقد ارتبطت تلك

الأساطير ببعض تلك الشعوب، واختلط موروثها الشعبي ببعضه ليصبح جزءاً من التراث الشعبي لأبناء مدينة عدن التاريخية، ومن أشهر تلك الأساطير على سبيل المثال لا الحصر: الأسطورة التي تقول أن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل فر إلى عدن مع أخته إقليمية ليحتميا فيها من أيهما آدم عليه السلام، وبعد أن دفنا جثة هابيل فوق جبل يقال أنه جبل التعكر (جبل حديد) - أشهر جبال عدن اليوم - ظهر لهما إبليس وأغراهما بعبادة النار، وبنى لهما معبداً للنار فوق جبل صيرة، وفي تاريخ المستبصر يذكر لنا ابن الجاور أسطورة هندية مفادها: إن هانومان (الإله القرد) حضر سرداباً تحت البحر من الهند إلى عدن، وإن البئر الموجودة فوق جبل صيرة ما هي غير فتحة ذلك السرداب، وأضاف أن (هانومان) سكن أحد جبال عدن ويعرف بجبل المنظر، وكان يسير متأملاً على شاطئ حفات في عدن وشاطئ صيرة، كما تقول الأسطورة إن هانومان حضر السرداب لأجل أن ينقذ الإلهة سيتا زوجة الإله رام جندار التي كان قد اختطفها الجنى راون. وفي أسطورة أخرى يقول ابن الجاور: إن في جبل صيرة بئراً تسمى «عنبر»، وتسمى عند حكماء الهند (بيران) يخرج منها





التحسينات التي أدخلت على جزيرة صيرة مؤخراً جعلتها موقعاً سياحياً مميزاً وماتعاً

جبلها، وبعض العمائر السكنية القديمة، والبيوت الأثرية المتواضعة التي يسكنها البسطاء من أهالي عدن، وبحكم وجود مرسى خاص بزوارق الصيادين بالقرب من صيرة، تم بناء وفتح سوق حديث وكبير على أنقاض السوق القديم لبيع السمك الطازج والحي ذي الأحجام والأشكال المختلفة، والطعم اللذيذ الذي يجذب برائحته الشهية بعد الطبخ المارة من المنتزهين والسياح، وقد يجذب الداخل إلى جزيرة صيرة ويلفت انتباهه المطاعم الشعبية التي ما زالت محتفظة بطرازها القديم، وأصوات العاملين فيها والمباشرين الذين يحاولون بأصواتهم لفت أنظار المارة، ودعوتهم للدخول إليها للحصول على وجبه لذيذة وبأسعار معقولة أساسها السمك الطازج، وقد تعددت وتبوعت الوجبات التي يتم إعدادها في مثل هذه المطاعم والتي عادة ما تفرش موائدها في الهواء الطلق على ساحل صيرة، إلا أن أشهر تلك الوجبات الشعبية المعروفة في عدن وتعد من وجباتها المعروفة في مطاعمها: وجبة (المخبازة)، وتحتوي هذه الوجبة على: السمك الطازج المعمول بالفلفل الأحمر الحار (بسباس) والملح الذي يوضع على الجمر في فرن حار معمول من الطين (موقاء). والخبز المعروف بين أبناء عدن بـ (الرتب)، وهو خبز يتم وضعه في فرن خاص حتى ينضج، ثم يؤخذ ويفرك باليد، ويرش بالسمن البلدي والعسل، وتكمل وجبة المخبازة بـ (السحاق)، وهو خليط من الطماطم والجبن البلدي والفلفل الأخضر الحار والثوم، إضافة إلى الحلبة الحارة المخلوطة بالفلفل الحار والثوم، وقد بلغ من لذة هذه الوجبة وطعامها أن مطاعم صيرة ليلياً تزدهم بالزبائن الذين يجيئون إلى هذه الجزيرة للاستمتاع بالطبيعة الخلابة، والهواء العليل، والتاريخ العريق، والآثار الباقية، والأطعمة اللذيذة. ونتيجة لما لهذه الجزيرة من أهمية كبيرة فقد قامت الجهات المسؤولة مؤخراً بإجراء عدد من الترميمات والإصلاحات على القلعة والطريق المؤدية إليها حتى يتسنى للجميع الوصول إليها والاستمتاع بجمالها، وبجمال عدن من على سفح جبلها، وقد سهلت تلك الترميمات الصعود والهبوط إلى القلعة أن كان ذلك صعباً ومحفوفاً بالمخاطر.

ويؤدي المدخل إلى قاعة مستطيلة الشكل مبلطة بالحجارة المصقولة، وفي سقفها يوجد فتحتان دائريتان، للإضاءة والتهوية، والقلعة بشكلها الداخلي والخارجي وتحصيناتها تظهر لنا مدى حكمة مصممها وبانيها لما فيها من استحكامات يصعب اختراقها بسهولة، لهذا كانت صيرة عصابة على الانجليز ومن قبلهم البرتغاليين وغيرهم من الغزاة الذين حاولوا مراراً وتكراراً غزو عدن وقلعتها الحصينة.

صيرة الطبيعة والجمال

لقد كان لما ذكر عن صيرة - من تاريخ جمع بين الحقيقة والخيال، وما احتوته من بقايا آثار ومواقع شاهدة على أصالتها، وطيب هوائها ونقاوته، وإطلالة على البحر من جميع الجهات - دور في أن تصبح هذه الجزيرة من أروع المواقع السياحية والأثرية وأحسنها في مدينة عدن، والسائح في هذه المدينة اليوم قد لا تكتمل زيارته لعدن إذا لم يزر صيرة ويتجول فيها، وعلى شاطئها، ويتعمق فيها بجرا بزوارق صيادها أو براراجل لا يستمتع بمنظر البحر الخلاب وهوائه الجميل. وقد ميزت صيرة اليوم والطريق المؤدية إليها - التي تم توسعتها مؤخراً - بعدد من المنشآت والمبان التي قامت من حولها - من جهة عدن - وجعلتها موقعاً سياحياً يدخل المتعة والسرور إلى قلب كل من يأتي إليها، مثل الحدائق الخضراء الجذابة، والملاهي والمنتزهات الأسرية، إضافة إلى مسجد صغير أعيد بناؤه مؤخراً تحت

وأبراج للمراقبة، وأطلق على هذه التكنة الحصن السفلي، وأحياناً القلعة المثلثة، لشكل بنائها المثلث، وفي الواجهة الغربية من التكنة كان موقع البئر التي تحدثنا عنها سابقاً، وهي اليوم مملوءة بالأحجار ولم يتبق منها سوى نصف متر عمقا. أما الطريق الآخر فيتجه غرباً نحو القلعة أعلى الجزيرة، ويمر الطريق الصاعد بجانب بقايا أحد الأبراج التي كانت تقع على جزء مرتفع من جنوب الجزيرة، وقد بنيت أساساته في الأرض، وتبقى من بعض أجزائه مدامكين، وآخر ثلاثة مداميك من الحجارة، ويستمر الطريق في الصعود إلى أعلى وتميل الطريق هنا نحو الشمال. وإلى يمين الصاعد يظهر بقايا أساس مبنى بيضاوي ربما كان بقايا لأحد خزانات المياه الموجودة على الجزيرة، ويتجه الطريق صعوداً ليخترق المرتفعات، ومن الممكن أن نلاحظ هناك أسواراً قصيرة من الحجارة أعدت لتدعيم جوانب الطريق، وعند الاستمرار في الصعود عبر درجات معدودات نجد جدران مرتفعة تتقدمها درجة صغيرة أخرى إلى الأسفل منها، كان يقف عليها الجسر الخشبي المتحرك عند إنزاله من بوابة القلعة الشمالية، ونلاحظ من هذا الموقع أن الجزيرة محاطة بالمحدرات التي يصعب التسلق عبرها للصعود لافتحام القلعة، بينما عبت الأماكن التي من الممكن تسلقها بحجار مسطحة لا يمكن المرور بواسطتها إلى القلعة، وفي أعلى هذا المنحدر قاعدتان لدفعين لا زالتا محفورتين في الأرضية، وفي الأسفل منهما يوجد مدفع مدفون في الأرض بشكل قائم ولا يظهر منه سوى فوهته. ويتقدم المدخل الشمالي للقلعة خندق طويل أرضيته اليوم مليئة بالأتربة، وكان ينزل جسر خشبي متحرك من المدخل الشمالي ليقف على العتبة التي تتقدم المصطبة الموجودة على المبنى المقابل للبوابة ليتمكن الجنود من الدخول والخروج عبر هذه البوابة.

أما القلعة (قلعة صيرة) في أعلى القمة من الجانب الشرقي للجزيرة، فتتخذ شكل حدوة الحصان، وتتألف من ثلاثة طوابق: الأول يوجد تحت الأرض، ويضم ثلاث غرف غير متساوية الأضلاع تأخذ شكل حرف (L) اللاتيني، شديدة العمق، ليس لها ممر إلا عن طريق فتحات في السقف تتدلى منها سلالم خشبية للنزول إليها، ويصعب اليوم النزول إليها لما فيها من أساخ وقاذورات، ويبدو أنها كانت تستعمل كمخازن للمؤن والذخيرة والأسلحة. والثاني يتألف من مجموعة من الغرف المختلفة الأحجام، والثالث هو سطح القلعة، ويتم الصعود إليه عبر سلم حلزوني، ويحتوي على حمام، ومصاطب حجرية تتوسطها قواعد للمدافع، ويفتح في جدرانها مدخلان: أحدهما يقع إلى الشمال، والآخر إلى الغرب من القلعة، وهو المدخل الوحيد المستخدم حالياً، ويطل على مدينة عدن، وتتقدمه ساحة أمامية مستطيلة، وفي شمالها وجنوبها برجان،